

رغم أن الدين أهم نواحي النشاط الانساني وأقوى تراث ثقافي فإن اللغة العربية تسكاد تكون خلوا من الكتب التي تتحدث عنه . وأقصد هنا بالدين المظهر الاجتماعي لسلوك الانسان نحو الله كما يراه الباحث الاجتماعي مجردا فكره عن أى اعتبار شخصى . فهو يدرس الدين كما يدرس باقى المظاهر الاجتماعية كالأسرة والقانون والأخلاق وغيرها

ولست دراسة الدين بالأمر الهين فما أ كثر الأديان وما أعقدها ، وقد توضع عشرات الكتب عن دين أحد القبائل البسيطة كالبولينيزيين مثلا ومع ذلك فإن الباحث يراها أقل من أن تفى هذا الدين حقه من الدرس والبحث . ولذلك كانت كثرة الكتب التي وضعت باللغات الأوربية عن الدين تستوجب الدهشة . الأمر الذى دفعنى إلى هذا الكتاب الصغير . وهو وإن كان قليل القيمة إلا اننى أرجو أن يكون مشجعاً للباحثين على الكتابة فى هذا الموضوع

لا يتحدث هذا الكتاب عن جميع أديان العالم بل عن ما يمكن أن نسميه مجموعة الأديان الغربية العالمية وأهمها الأديان الفطرية والديانة المصرية القديمة واليهودية والمسيحية والاسلام والتطورات الدينية الحديثة . وذلك تمييزا لها عن مجموعة الأديان الشرقية الهندية والصينية وعن الأديان القومية كديانة اليونان والرومان

والسبب فى اقتصار البحث على الأديان الغربية هو رغبتى فى التحدث عن الدور الذى لعبته مصر بالنسبة للأديان ، وقد كانت مصر بطبيعة دينها وتاريخها أقرب صلة بالأديان الغربية منها بالأديان الشرقية ، فإن تحدثنا عن تاريخ الأديان الغربية فأنما نتحدث عن أحد نواحي تاريخ مصر نفسه ، بل نتحدث عن ما هو أ كثر من ذلك وهو الصلة القوية التى تربط هذه الأديان حتى انها تسكاد تجعل منها عقيدة واحدة المصدر متغيرة المظاهر بتأثير البيئات التى انتشرت فيها وبدافع الظروف التى اكتنفها

ولو أن تاريخ الانسانية يعتبر ناقصا مبهما إذا ما أسقطنا منه تاريخ آلهتها ، فإن دراسة الأديان ظلت زمنا طويلا بعيدة عن أفق العلم ، ولم يهتم بها العلماء إلا منذ عهد قريب

اهتم بعض المؤرخين الاغريق قديماً بأفكار وعادات الشعوب التى اختلطوا بها . وقد سعى لذلك هيرودوت « أول عالم أنثروبولوجى للدين » وكذا وصف تيوجبس الوثنية الفارسية فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ولما كان ميخاستين سفيرا للبلاط فى الصين عام ٣٠٢ ق . م دون ملاحظاته عن العادات الوثنية فى أواسط وادى الجانجس . ولما ظهرت المسيحية دون كثير من الآباء المسيحيين

القدماء كثيراً من الملاحظات المتعلقة بالعقائد المنتشرة حولهم من أوجه نظر عديدة. واشتهرت مكتبة الاسكندرية في عهد بطليموس فيلادلف في القرن الرابع بعد الميلاد بجميع الكتب المختلفة فكان من خطة أمنائها جمع الكتب المقدسة التي للأثيوبيين والهنود والفرس والبابليين والآشوريين والاغريق والرومانيين والفينيقيين

وفي العصور الوسطى نرى البوريني (٩٧٣ م) يقارن بين عقائد الاغريق والمسيح واليهود بفلسفة وديانة اليهود ، وجمع امبراطور المغول الاكبر في بلاطه (١٥٤٣ — ١٦٠٥) البراهمة والزرادشتيين واليهود والمسيحيين والمسلمين وحاول ترجمة كتبهم المقدسة

ولما ظهرت النهضة في الغرب ابتدأت دراسة الدين تأخذ أسماها العلمي الحديث، فدرس توماس هيد (١٦٣٦ — ١٧٠٣) ديانة الفرس القديمة ، وحال جون سبنسر (١٦٣٠ — ١٦٩٣) القوانين اليهودية وبحث من جديد نظرية استخدام الله لطقوس وأفكار متوسطة في قيمتها لكي يمهّد السبيل لما هو أرقى منها . ويعتبر سبنسر أول من كتب في علم الأديان المقارن . وكذا حاول الاورد هربرت (١٦٤٥) أن يرجع أصل جميع الأديان الى الحقائق الأولى الخمسة للكائولوجية وظلت نظريته سائدة مدة قرنين وكان جلادستون (١٨٦٨) آخر المبشرين لها . ثم وضع كودورث (١٦٧٨) كتاب « النظام العقلي الحقيقي للوجود » قائلاً ان الانسان لم يكن مطلقاً ملحداً فان الاوثان كانت مجرد رموز . وأتى بعده دافيد هيوم فوضع بحثه عن التاريخ الطبيعي للدين (١٧٥٧) على مبدأ تطور الجمعية البشرية من نشوئها الفطري

ومنذ ذلك الوقت قامت الابحاث الحديثة على فكره النشوء . ويعتبر ديوبوا أول من كتب في تاريخ الدين كتابة علمية في كتاب « أصل جميع العقائد » (١٧٩٤) حاول أن يرجع أصل جميع الآلهة حتى المسيح الى أسطورة الشمس

وبمرور الزمن وجدت هذه الابحاث انتشاراً عظيماً ، فابتدأت بعثات الجزويت في الهند والصين وأخذ يعمل كثير من الباحثين الانجليز بزعامه وليم جون وكبروك على نشر كنوز الادب السنسكريتي ثم أخذ الباحثون الالمان والفرنسيون يوسعون أفق البحث . وكان اكتشاف حجر رشيد في مصر مفتاحاً للغة الهيروغليفية . وكذا اكتشفت الحروف المسارية فكان ذلك العلماء الاوربيين من معرفة محتويات مخلفات مصر وبابل وأشور . ومن ثم أخذ السياح والبعثات الدينية تصف طادات القبائل الفطرية في كل مناطق العالم . وفي نفس الوقت كانت الفلسفة تعمل على حل مشكلة الشعور الديني . فحاول كثير من الفلاسفة الالمان أمثال ليسنج وهردر وكانت وبيجل وفيخت وشيلر ماخر وأتباعهم شرح الدين على ضوء العقل ، وارجاعه الى أصوله من الفكر والشعور . وشرح كونت

نظريته المشهورة (١٨٤١) عن أدوار المعرفة الثلاثة . بينما كان علم الشعوب Ethnography يجمع الحقائق من كل أجزاء العالم ، وابتداء علم النفس يحلل أشكال المعتقد والشعور الديني

أما من وجهة النظر التاريخية واللاهوتية فقد ابتداء البحث في أول الأمر في موضوع الأساطير فحاول مكس مولر في كتابه (الميثولوجيا المقارنة) البحث عن العناصر المشتركة في الفكر الآري ليصل الى أسرار الديانة الفطرية . ثم تبعه جريم ومانهاردت ، فكان ذلك بدأ تفكيرين على الأنثروبولوجيا . ومنذ ظهور كتاب تيلور (الثقافة الفطرية — ١٨٧١) وجدت دراسة نشوء الدين كثيرا من حماسة الباحثين . فأخذ كل من مولر وهربرت سبنسر يشرح نظريته في نشوء الدين . فعزا الأخير أصل الدين الى عبادة الموتى وتبعه جرانت الن وليبرت في ألمانيا ، ولكن أندرو لانج كان من المعارضين لهذه النظرية فأصدر كتاب (السحر والدين — ١٩٠١) وقال ان فكرة الاعتقاد بكائن أعلى ظهرت ضمن سياق التطور ثم انحطت بعد ذلك عند ما اعتقد الانسان بالعباد والالهة الصغيرة . ووجد جيوفنز الأصل الاول للدين في الطوطمية في كتاب (تاريخ الدين ١٨٩٦) ويرى فرازر ان الدين أحد أدوار السحر ، ويرجعه كرولى في كتاب (شجرة الحياة ١٩٠٥) الى غريزة الحياة ويربط مظاهره الاولى بمماريات الحياة العضوية . أما ولهم وندت في كتاب (الخرافة والدين) فيقول ان التصورات الاولى عن الروح هي مصدر نشوء الدين

وعلى العموم فان مسألة نشوء الدين لا يمكن تحديدها من الوجهة الارخولوجية أو التاريخية بل يجب أن يشترك علم النفس في هذا التحديد . وان ما يضعف هذه النظريات هو فروضها ، كما يضعف الابحاث التاريخية المبالغ في التأمل الذاتي ولذلك ظهرت في أوائل هذا القرن طريقة جامعة بين الدراسة التاريخية والابحاث الأنثروبولوجية ، ويعتبر جريمير وانسكرمان « ١٩٠٤ » وشميت « ١٩٠٨ » واضعى أسس هذه المدرسة التي يطلقون عليها المدرسة التاريخية الثقافية

ليس الدين في الواقع الا أحد المظاهر الاجتماعية ، ولذلك فان دراسته تعتبر ضمن العلوم الاجتماعية التي تعضد لقوانين البحث الاجتماعي ، ومن بديهيات هذه القوانين ، أننا لكي ندرس أي مظهر اجتماعي لابد لنا من تقسيمه الى أربعة أقسام — « ١ » الناحية التشريعية « ٢ » الناحية الفسيولوجية « ٣ » الناحية الفلسفية « ٤ » الناحية التاريخية وبعبارة أخرى يجب أن نسأل أنفسنا هذه الأسئلة — « ١ » ما هو الدين « ٢ » ماهى وظيفته ؟ « ٣ » ماهو الغرض منه ؟ « ٤ » كيف نشأ وتطور ؟ ، والسؤال الاول يلوح أنه بسيط بالنسبة للشخص العادى الذى لا يعرف الدين إلا من الناحية العملية ، ولكنه سؤال عسير بالنسبة للباحث الذى يدفعه تفكيره الى مراعاة جميع العقائد الدينية من أبسطها الى أعقدها

وضعت كثير من التعاريف لكلمة الدين أهمها تعاريف سبنسر ومكس مولر وروانز وجوبلت والافيل وكثير غيرهم وهم يرون أن الدين هو « التسليم بقوة خفية تحتاج الى التعبير عنها » أو هو « قسم من الفكر » ويرى شلير ماخر أن الدين هو شعور الاعتماد على الله أو هو « الميل الطاهر التبجيلي أو الشكل العلة لى الذى نسميه التدين » ويرى قيل « أن أساس التدين وروح الدين هما العبادة »

ولكن التقدم الحديث لعلم النفس والعناية المتزايدة والعمل الدقيق الذى قام به علماء الاثروبولوجيا أدى الى ادخال هذه الآراء ذات الجانب الواحد ، وأصبح من الأمور العادية التصريح بأن فى الدين جميع جوانب الشخصية مشتركة ، فالإرادة والشعور والفكر ضرورية ، فهى عناصر لا تنفصل عن الدين . وفى ذلك يقول فليدر « ان الفكر والارادة فى الدين ليست نهاية فى ذاتها كما هو الحال فى العلم والاخلاق ، ولكنها تابعة للشعور باعتباره مركز الاحساس الدينى »

وأهم التعاريف الحديثة هى تعاريف فرازر وسابتيير ووليم جيمس ، ويرى الأول أن الدين هو « استرضاء وتهذئة القوى التى أعلى من الانسان ، والتى يعتقد الانسان أنها تدير وتقود مجرى الطبيعة والحياة البشرية » ويرى سابتيير « أن الدين هو العلة التى تدخل بها النفس المكروبة مع القوة الخفية وتشعر أنها ومصيرها يعتمدان عليها » ويرى وليم جيمس أن « الحياة الدينية تتكون من الاعتقاد بوجود نظام خفى وأن صالحنا العظيم يتوقف على تناسقنا مع هذا النظام ، وهذا الاعتقاد والنظام هما الدينية للروح »

نستنتج من التعاريف الحديثة ان الدين هو أحد أنواع النشاط أو شكل من أشكال السلوك . ومن الخطأ أن نسميه شعورا أو معتقدا خاصا

أما عن وظيفة الدين فى الحياة فقد شغل تأثيره جميع نواحي نشاط الانسان القديم . يولد الطفل فتباشر القبيلة عدة طقوس لكي يصبح الطفل سليلا لعلو طم القبيلة وفردا منها . ولم تكن للانسان أية فصحرة عن التماسك كنتيجة للاختلاط الجنسى ، لذلك اعتقد أن الولادة من الاسرار الالهية . ومما يثبت ذلك أغلب القصص الميثولوجية التى وصلتنا عن الآلهة التى ولدت من أمهات عذارى . فهى برهان على جهل الانسان بالعلاقات الجنسية

إذا صار الطفل رجلا تزوج ولكن وفقا للاوامر الديفينة المفروضة ، وقد اعتمدت الأسرة الاولى على العملات الطوطمية التى منعت الزواج الداخلى وأباحت الزواح الخارجى وبالتالى حددت العملات الجنسية للأفراد بعضهم ببعض

كذلك كان تأثير الدين في حياة الانسان الاقتصادية عظيمًا خصوصًا فيما يتعلق بالزراعة فقد اعتقد الانسان أن النباتات تنمو بفعل الأرواح فكان يقدم التضحايا لكي تنمو حاصلاته وتكثر

كان للدين أيضا شأن عظيم في تطور القانون والخلق ، فقد أوجد آراء حقوق الملكية و قدسية الحياة البشرية ، وكان القاتل يعتبر نجسًا يحرم على سائر أفراد القبيلة النظر اليه وكان المتاع يترك في حماية الطفوس الدينية التي كان الانسان يظن أن لها من القوة السحرية ما يجعل الشيء المراد الاحتفاظ به خطرا على أى شخص يمسسه خلاف صاحبه

ننتقل الآن الى الناحية الثالثة ، وهي الناحية الفلسفية . يتوقف الغرض النهائي للدين على مقدار الرقي العقلي الذي أصابه المتدين . فالانسان الأول لجأ في حل معضلات الوجود الى الاساطير والقصص الخرافية ثم انتقلت هذه الاساطير عن طريق الوراثة حتى أصبحت عقائد دينية ، كان يلقيها الكهنة ورؤساء الدين للشعب من غير تفسير . ولما قطع الانسان في سبيل التفكير المعقول شوطا عظيما توصل إلى معرفة فكرة الألوهية والآلهة ثم الاله الواحد الأحد ، وفلسفة الوجود والعدم وطبيعة الخير والشر ، وغير ذلك من النقط الفلسفية التي كانت محصورة معرفتها في طبقة الكهنة . وهنا ظهر علم اللاهوت وفلسفة الدين . فوجدت النظريات الفلسفية المختلفة عن أصل الله والعالم وكان أهم هذه النظريات نظرية التوحيد Theism وتعتقد بان هناك اله واحد خالق هذا العالم له شخصية مقدسة ذات وجود قائم بنفسه وتدافع عن شخصية الله وصفاته البشرية الأمر الذي يتنافى مع جلال الالهية بان الاعتقاد في الله أمر يتعلق بالفكر البشرى ولذلك يجب أن تكون أفكارنا بشرية الشكل

ونظرية الحمول Pantheism وتعتقد بأن كل شيء هو الله وان الله هو كل شيء ، وتنكر التمييز بين الله والعالم وتدافع عن وجهة نظرها قائلة ان الله هو الحياة فهو موجود أينما كانت

ولما جاء كونت رفض اللاهوت الا انه اعتقد بالدين وأراد أن يجعل عبادة البشرية تحمل محل عبادة الله وهو لذلك يعتبر أول المنادين بالبشرية

والناحية الأخيرة هي الناحية التاريخية وتشمل مقدار التطور الذي طرأ على النواحي الثلاثة . فاذا نظرنا الى الدين من هذه الناحية وجدناه كالأصناف الحية في الطبيعة ، لم يخلق فجأة بل مضى متطورا في خطى نشوئية تدريجية ، حتى أن الديانات التي أتت بها مبشرون قد كونت على أساس كان بذاته نتاجا لخطى من النشوء والتدرج المستمر ، ولكن كيف نشأ الدين وكيف تطور ؟

أما عن النقطة الأولى فهناك نظريات عدة وضعت عن نشوء الدين ويرجع اختلاف هذه النظريات إلى اختلاف البيئات التي درست فيها عادات القبائل والشعوب القطرية ، فقد وجه الباحثون جهودهم في أواسط مختلفة وفي أوقات متغايرة ، فكان من ذلك النظريات المختلفة عن نشوء الدين تعتبر نظرية تبلور عن نشوء الدين أول نظرية علمية مبنية على البحث العلمي وهي ترجع في الأصل في نشوء الدين إلى فكرة الانسان عن الروح التي نشأت عنها عبادة الموتى وهذه تدرجت في مراتب ثلاث عبادة الجثة ثم عبادة الروح باعتبارها ستبعث ثم عبادة الروح باعتبارها خالدة ولأن جوفنز أعلن ان الأصل الأول للدين هو الطوطمية ، والطوطم غالباً حيوان أو نبات تجعل الجماعة له رمزاً واسماً عامين ، ويعتبرونه إلههم أي موجودهم وحاميهم . ويعتقدون فضلاً عن ذلك انهم من سلالة ، أي انهم أقارب بعضهم لبعض ، لذلك كان الطوطم أيضاً رمزاً لقوة ارتباط الجماعة

ولم يكذب بزغ فجر القرن الحالى حتى أظهر فريزر ان الدين أحد أدوار السحر ، فعند ما كان عقل الانسان القطري في طفولته ، اعتقد ان لجميع القوى الطبيعية شخصية وإرادة ، وعهد إلى استرضاء هذه القوى التي تتسلط على حياته ، فتملقها وعبدها وتودد اليها بمختلف الهدايا ، وعهد إلى السحر يستعين به على تهدئتها والاستعانة بها

وعلى العموم فإن هذه الفروض عن نشوء الدين تشترك في شيء واحد هو ان فكرة الانسان الأول عن الله ابتدأت تتخلع على الآلهة الأشكال البشرية والحيوانية ويسمى هذا بدور الوثنية . ومع توالي الزمن أخذ عدد الآلهة يتناقص ، فلم يعد الانسان يؤله إلا القوي الكبرى في الكون وهذا دور الشرك أو تعدد الآلهة ، ثم تمشت الديانة شيئاً فشيئاً إلى التوحيد . فلم يعد يرى الانسان إلا إلهاً واحداً ولكنه ظل إلهاً أنتروبومورفياً « مزود بصفات بشرية وحيوانية » ثم أخذت تزول عنه أشكال الانسان والحيوان حتى أصبح لا شكل له إلا أنه ظل إلهاً أنتروبوباتياً « مزود بالعواطف والاخلاق الانسانية » فكان العطف والحب والعدالة ضمن خصاله . وبمرور الزمن كانت الصفات والعيوب التي تكون الفردية تزول من هذا الإله الشخص الذي لا شكل له . فأصبح مجرداً لا عواطف له يتحرك فيه كل شيء ويحمي حياته